

نظرة الناصري لمقاومة الأمير عبد القادر من خلال مؤلفه الاستقصاء.

The Nasseri's opinion about El Emir Abdelkader's resistance in his book "al Istiksa"

بلعربي نورالدين¹

¹ قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجبالي بونعامة خميس مليانة (الجزائر)، -n.belaribi@univ-dbk.m.dz

تاريخ الإرسال: 2021/10/10 تاريخ القبول: 2022/03/24 تاريخ النشر: 2022/05/01

SDSمجلة دراسات في التنمية والمجتمع المجلد 07 العدد 01 سنة 2022

ملخص: لاجدال في ان الناصري كان من أبرز رجالات النخبة المغربية في بداية القرن التاسع عشر ونشأ في إطار ثقافة دينية تقليدية، إضافة إلى انتسابه إلى الزاوية الناصرية التامكروية الواقعة بوادي درعة. أقبل الناصري منذ صغره على العلم والتعلم. فأخذ في قراءة القرآن منذ صباه على شيخه الحاج محمد العلوي السلاوي فعاش متشبعاً بالثقافة الدينية، مكنته من المساهمة في أعمال وطنية وفكرية خدم بها مصلحة بلاده ورغم نظرته في كون المسلمين أمة واحدة موحدة إلا أنه لم يخفي ميوله وتعاطفه مع المخزن المغربي ولأن الشعوب على دين ملوكها لذلك نجده في كتاباته التاريخية التي وردت في مؤلفه الضخم "الاستقصاء" في جزئه التاسع، طالما يتعرض لمقاومة الأمير عبد القادر بنوع من القدرح تلفيق التهم إلى درجة اتهام الأمير عبد القادر بمحاولة خيانة السلطان المغربي بسعيه للاستحواذ على العرش المغربي وفي هذا الشأن يصفه بالفتان الذي يجر أذيال الفتنة إذ يورد في شهادته أن الأمير كان يسعى وبشكل دؤوب في إثارة قبائل المغرب الشرقية ضد السلطان ومن ثم يرى وجوب مقاتلته ومطاردته درأ في نظر الناصري للفتنة. محاولاً في كل ذلك لتبرير المواقف السلبية للسلطان المغربي من الأمير ومن المقاومة الجزائرية. هذا الموقف السلبي الذي أوقع كل المنطقة في قبضة الغزاة بما في ذلك المغرب الأقصى الذي لم يسلم من هذا الغزو رغم مجاراته للسلطة الاستعمارية في محاربة الأمير. ومن هنا كان بحثنا المتواضع للرد على افتراءات صاحب الاستقصاء وأظهاراً للحقيقة وإبطالاً للكثير من التهم التي لطالما حاول البعض الصاقها بالأمير. لذا اعتمدنا على المنهج التاريخي واللجوء أحياناً إلى المقارنة أظهاراً للحقيقة. الكلمات المفتاحية: الناصري، الاستقصاء، الأمير عبد القادر، الحدود، المغرب، الجزائر، فرنسا.

Abstract : There is no doubt that "A Nasseri" was one of the prominent elite at the beginning of the nineteenth century and that he was brought up within the guidelines of a traditional religious culture besides his adherence to the "Nasseri Tamakrouiti Zawiya" which is a Sufi order that was situated in Wadi Daraa. Since his childhood "ANasseri" had immersed himself in studies and as most Muslim children, at that time, he started with the learning by heart of the "Koran" on the hands of his teacher "Al Haj Muhammed Al Alawi a Sallawi" and thus he imbibed a religious culture since a low age that enabled him to participate in intellectual and national tasks that were of a great service to his country. Though he saw the Muslims as "One Umma" which means one nation, this didn't prevent him from showing his inclination to and sympathy with "the Moroccan Makhzen" and because, as it is said, the people generally follow their king's religion, no wonder that we find in his voluminous book "Al Istiksa", in the ninth chapter a denigration of "Al Emir Abdelkader's resistance to the French and accusations of treason against the Emir on the basis that the Emir attempted to overthrow the king and to take over the kingdom and in this context, he accused the Emir of being a "Fattan" which means "he also accused him of trying to instigate the eastern tribes of Morocco to rebel against the king thus concluding that the Emir should be combated if ever a revolt should be avoided. "A Nasseri" found in this an acceptable excuse to the king's negative attitude towards the Emir's resistance to the French army. This negative attitude that caused the loss not only of Algerian territories but Moroccan territories as well.

Keywords: Al Emir, ANasseri, Al Istksa, Algeria, Morocco, French.

توطئة (مقدمة):

لقد اعتبرت القضية الجزائرية، جزءاً لا يتجزأ من الجسم العربي الإسلامي عامة والمغاربي خاصة. مما جعلها تكون محط اهتمام ساستها وأدباءها ومفكرها هؤلاء الذين سعوا إلى إيصال آلام ومعاناة الشعب الجزائري ومن هؤلاء الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري في مؤلفه الضخم الذي يحمل عنوان "الاستقصا" والذي ينقسم إلى تسعة أجزاء ويهمنا في دراستنا هذه الجزء التاسع الذي عالج فيه صاحب الاستقصا تاريخ الدولة العلوية، منذ منتصف القرن السابع عشر الميلادي حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي. حيث تعرضت الجزائر للغزو الفرنسي وحفل بذلك تاريخ هذه الدولة بأحداث ومحطات تاريخية حاسمة حددت مصير المنطقة برمتها ورسمت معالم العلاقات الجزائرية المغربية المستقبلية بالإضافة لما احتواه هذا القسم الكبير من تاريخ الدولة العلوية يتحدث أيضاً وبإسهاب عن الغزو الفرنسي للجزائر وعن موقف المغرب من الاحتلال الفرنسي وعن المقاومة المسلحة بقيادة الأمير عبد القادر.

إن كيف كانت نظرة صاحب الاستقصا لمقاومة ودولة الأمير عبد القادر؟ وهل كان لهذا الطرح التاريخي أسس علمية ومعرفية للتأصيل لكتابة مثل هذا النوع من التاريخ "تاريخ الوطنية الناشئة"؟ وإلى أي مدى كان تحيز الناصري مؤرخ البلاط للسلطان على حساب الأمير عبد القادر؟ وإلى أي مدى أقر الناصري واعترف بجميل الأمير في مواجهة المغرب لفرنسا؟ وهل نجحت كتاباته في تشويه صورة الأمير؟ إشكالات كثيرة تطرح لدى قارئ الاستقصا نظراً لحساسية الفترة التي عالجها المؤرخ المغربي ولحساسية العلاقة التي جمعت الأمير بالسلطان من جهة وبالشعب المغربي من جهة أخرى؟ كيف يتعامل الخطاب التاريخي التقليدي في المغرب مع تجربة الأمير عبد القادر-مقاومة-ودولة؟

ذلك هو السؤال الذي طرحته في هذه المقالة، ولمعالجته اخترت كتاب (الإسقصا في أخبار دول المغرب الأقصى)¹ وللوصول إلى إجابة عن الإشكال المطروح، انتهجت طريقة تحليل النص التاريخي التقليدي بهدف توضيح الأسس النظرية التي توطر بنيته وتقرر اشكالياته.

1.1: الناصري والاستقصا:

أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي الجعفري يقول عن مولده: "وفي سنة خمسين ومائتين وألف ولد مؤلف هذا الكتاب. أخبرتني والدتي الست فاطمة بنت الفقيه السيد محمد بن محمد بن قاسم بن زروق الحسني الإدريسي يوم السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة"² الموافق لـ 22 مارس 1835، بإحدى المدن المغربية العريقة وهي مدينة سلا حيث نشأ وترعرع حتى توفي في 12 أكتوبر 1897، نشأ في إطار ثقافة دينية تقليدية، إضافة إلى انتسابه إلى الزاوية الناصرية التامكرونية الواقعة بوادي درعة. أقبل الناصري منذ صغره على العلم والتعلم. فأخذ في قراءة القرآن منذ صباه على شيخه الحاج محمد العلوي السلاوي ثم الأستاذ محمد بن الجيلاني الحمادي ثم الأستاذ محمد بن طلحة الصباحي، فأتم القراءات السبع على شيخه عبد السلام بن طلحة. كما تلقى على يده فن التجويد وحفظ المتنون وأمهاات الكتب للشاطبي وابن مالك وابن عبد البر وغيرهم. ثم انتقل بعد ذلك إلى القاضي أبي بكر بن محمد عواد السلاوي فقرأ عليه فنونا وعلوم مهمة كالأصول والمعاني والبيان والبدع والسيرة النبوية والتصوف. كما درس الناصري علم التفسير وعلوم الحديث والرياضيات والطبيعية وكتب التاريخ والجغرافيا.

تولى الناصري عدة مناصب على إدارة الاحباس كأمين لبعض المراسي. انتدب الناصري من طرف السلطان المولى الحسن الأول في سلك موظفي الدولة في عدة وظائف سامية رغم امتناعه عنها خشية أن تصرفه عن التحصيل العلمي. لكن السلطان العلوي ألح على الناصري حتى قبل بالوظيفة العمومية، وتدرج فيها إلى أن بلغ مناصب سامية بسبب علمه واجتهاده.

عين الناصري في بادئ الأمر في مدينة سلا في عدة مناصب، ثم انتقل إلى مدينة فاس وتعرف بعلمائها وأدباءها، وكانت له معهم محاورات ومناقشات في علوم شتى. ثم عرج إلى وزهون وتعامل مع العامة وصبر أغوار الناس واطلع على أحوالهم. عرف عنه حياة الترحال حيث عاش متنقلاً بين شتى المدن المراكشية بين تطوان والعرائش وأصيلا والقصر الكبير، ثم انتقل جنوباً إلى بلاد الشاوية ثم الدار البيضاء، ثم المدينة الحمراء التي استغل مقامه بها لجمع المواد التاريخية لكتابه المشهور "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"³. منذ بلوغه سن الأربعين، شرع في جمع مواد كتابه الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، واستمر في ذلك لمدة تناهز العشرين سنة، إلى أن فرغ من تأليفه سنة 1894 توفي ثلاث سنوات بعد اتمامه مؤلفه الرئيسي، أي قضى الثلث الأخير من عمره في جمع ووضع وترتيب مؤلفه عن عمر ناهز 62 سنة. إن تعلمه بجامعة القرويين واشتغاله بالوظائف المخزنية في سلا والدار البيضاء ومراكش وطنجة وفاس وغيرها. هي التي اكتسبته حكمة ودراية واسعة بأمور السياسة والعلم

والمعرفة فعلى حد تعبير ليفي برو فنصال صاحب (مؤرخ الشرفاء) من المرجح ان تلك التنقلات هي التي حفزته على كتابة تاريخ بلاده لأنها أتاحت له الاطلاع على وثائق الحواضر المغربية ومستنداتها.

1.2 - مؤلفات الناصري :

وللناصرى عدد من المصنفات منها " تعظيم المنة بنصر السنة" تولى فيه التنبيه على البدع المحدثه في الدين والتشديد بأهلها من شيوخ الطرق الدينية، والناصرى معوف بمواقفه السلبية من الصوفية. وله كتاب آخر في التعريف بالزاوية الناصرية سماه " طلعة المشتري في النسب الجعفري" أراد من خلاله إثبات شرف أسرته وأهل الزاوية المتمركزة فالرجل كان مقربا من السلطان ويسعى ليضفي على نفسه طابع الإجلال والاحترام مروراً بعائلته وصولاً إلى خدماته وأعماله في خدمة العائلة المالكة في المغرب.

كما ان للمؤلف كتاب آخر "كشف العرين عن ليوث بني مرين"، مختصر في أخبار الدولة المرينية 1295/1878 ومن خلال هذا العنوان يحاول دوما ان يضيف على تاريخ الأسرة الحاكمة في المغرب طابع القوة والقداسة والتأصيل التاريخي وإضفاء نوع من الشرعية التاريخية على السلالات المتعاقبة على العرش المغربي. كما أن للمؤلف كتب أخرى في اللغة العربية وآدابها وقواعدها ومنها "الفوائد المحققة في إبطال دعوى أن التاء طاء مرققة"، والذي صدر له عام 1291/ 1874 وفي السيرة النبوية العطرة له مصنف بعنوان " تعظيم المنة بنصرة السنة "حول البدع المحدثه في الدين، والذي صدر له عام 1311 / 1893 . وفيه جمع بين الفقه والسيرة. أما عن أضخم مؤلفاته والذي هو موضوع بحثنا هذا فهو كتاب: "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" من تأليف المؤرخ المغربي أحمد بن خالد الناصري، وهو من أشهر المؤلفات في تاريخ المغرب الأقصى من لدن الفتح الإسلامي. وهو أعظم عمل اشتهر به الناصري والذي ألفه بمدينة سلا وانتهى منه سنة 1894.

1.3- الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى :

-كان نشر الاستقصاء بمثابة تقدم لا نظير له في حركة التأليف المغربي، خاصة وان الظروف لم تكن لتساعد على ذلك. ولكون الكتاب لم يقتصر فيه على ذكر أخبار فترة زمنية بل ضمنه إضافة الى تاريخ بلاده العام، فإنه تضمن تاريخ العالم الإسلامي منذ فترة صدر الإسلام. وفي هذا الصدد يقول العروى "هو أول تأليف كامل لتاريخ المغرب الأقصى يقدم على رواية متصلة في مادة التاريخ السياسي كانت مبعثرة في كتب الأخبار او كتاب التراجم والطبقات". - والكتاب يحمل رسالة واضحة اذ يريد منها صاحبها (إثبات جميع المقومات المتعلقة بتاريخ المغرب العام فالمؤرخون الذين سبقوا لم يهتموا إلا بجزء من أجزائه لأنهم كانوا ينظرون إلى تاريخ المغرب الأقصى كجزء من تاريخ أعم وأشمل الا وهو تاريخ العالم الإسلامي ككل في إطار الخلافة. -أما من الناحية المنهجية فإن الاستقصاء لا يعدو أن يكون في معظمه جمعا لنصوص وأخبار وردت في تأليف سابقة كابن ابي زرع وابن خلدون والإفراني و الزياتي و القادري وغيرهم وقد رتبته الناصري على طريقة (الحوليات) يذكر وقائع السنة وينهيها بذكر وفيات الأعيان.

-فالناصرى ورغم استقلال رأيه، لا يستخلص الأحداث العامة، بل هو كاتب (يوميات) يسجل أحداثا لا تربط بينها رابطة فكرية إن هذه الطريقة لا تترك للمؤرخ مجالا للتقييم أحداث عصره و إبداء رأيه الإجمالي فيها. ويتألف (الاستقصا) الذي طبع لأول مرة في القاهرة أوائل القرن العشرين من أربعة أقسام . القسم الأول : في السيرة النبوية والخلفاء الراشدين وتأسيس فاس وأخبار المربرطين والموحدين . القسم الثاني: يتناول بالتفصيل تاريخ المرينيين و الوطاسيين ,

القسم الثالث: يتناول فيه تاريخ السعديين

القسم الرابع: يتناول فيه تاريخ العلويين، وفيه يتحدث عن الغزو الفرنسي للجزائر وعن موقف المغرب من الاحتلال الفرنسي والمقاومة المسلحة بقيادة الأمير عبد القادر.

1.2 - الأمير والمقاومة في ضوء الاستقصا :

-يتحدث الناصري عن مقاومة المسلحة بقيادة الأمير عبد القادر في سياق الحديث عن الموقف المغربي من الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830. ويلخص الناصري موقفه من الأمير عبد القادر والمقاومة بهذه العبارة، اذ بعد الفوضى التي شاعت في الغرب الجزائري بعد انسحاب جيش السلطان من تلمسان تم تعيين الأمير على إمارة الجهاد «ولما تم أمر الحاج عبد القادر جمع كتيبة من بني عامر والحشم وزحف إلى وهران وكانت يومئذ في ملكة الناصري فأوقع بهم وقعة شنعاء، قتل فيها واسر وأبلغ في النكاية ورجع مظفرا منصورا فتبمنوا به وأحبوه "حيث أكد في ما ذهب إليه حنكة الأمير وتمكنه من أساليب القتال كل ذلك بسبب الثقة الكبيرة التي زرعه في عموم الشعب الجزائري . وهذا يتأكد لنا من خلال تسابق القوم في مبايعة الأمير فما هم أهل تلمسان يسارعون في بيعه الأمير بعد ان تخلى عنهم السلطان المغربي فاستظلوا بظله، إلا أن الأمير ولحنكته ودهائه ونبوغه الدبلوماسي وسعيه لتلقي الدعم في زمن الحصار قبل يبيعهم مع الاحتفاظ بولائه للسلطان المغربي وذلك ما نجده موضحا في كلام صاحب الاستقصا "ولما

سمع به أهل تلمسان وهم أحوج ما كانوا الى من يقوم بأمرهم وفدوا عليه واخبروه بما كان منهم من مبايعة السلطان... وإنهم يبايعونه على بيعته والإعلان بدعوته ، فأجابهم عبدا لقادر إلى ذلك واخذ عليهم البيعة واطهر الطاعة والانقياد للسلطان المولى عبد الرحمن⁵

كما يشير الناصري إلى ظاهرة الخيانة التي تعرض لها الأمير من لدن بعض القبائل وزعمائها خاصة مصطفى ابن إسماعيل الذي يرى فيه الناصري انه سبب بلاء وهزيمة الأمير وهو الذي سهل مهمة الفرنسيين في الاستيلاء على الجزائر بل انه كان وراء جميع الحروب التي كانت بين الأمير والفرنسيين. اذ يقول في هذا الشأن "ثم ان الزمالة والدوائر لجوا في موالاة الفرنسيين واحكموا أمرهم معه وولوا عليهم رجلا منهم يقال له المصطفى بن إسماعيل كان هو السبب الأكبر في تملك الفرنسيين بلاد المغرب الأوسط وجل الحروب التي كانت تكون بين المسلمين والناصرى في تلك المدة على يده إلى أن قتل⁶

وعن قدراته العسكرية والقتالية يذكر الكاتب " بالجملة، كان الحاج عبد القادر هذا في أول أمره على ما ينبغي من المثابرة على الجهاد والدرء في نحر العدو ولولا أنه انعكاس حاله في آخر الأمر وخلصت الأرض للفرنسيين⁷ وعن ما ذهب إليه الناصري من أحكام في حق الأمير وعن المقاومة للقارئ يؤكد الناصري أن هذا الحكم ليس حكما ذاتيا بل الواقع الذي تقصاه إذ يقول (واعلم أنه قد يقف بعض المنتقدين على ما حكينا من أخبار هذا الرجل فينسبها إلى تعصب وسوء وآداب والجواب أن ما حكيناه إلا الواقع) أنه لا يخفى أن موقفه هذا هو الموقف الرسمي المغربي ذاته لكنه لا يعتبره تزلفا ومساييرة للمخزن العلوي. وقبل الشروع في تفسير الأسس النظرية التي تحدد الخطاب التاريخي عند الناصري، نوضح تقييمه للأمير والمقاومة عموما فالناصرى، يميز بين مرحلتين في المقاومة جهادا ومرحلة ثانية ينعت فيها الأمير بالفاقد والفتان والشیطان والمكر ويصف المقاومة على أنها قتال بلا ثمرة ثم فتنة لأنها أدت إلى إفساد القبائل المغربية الشرقية .

2. 2-أسباب تحول الأمير في نظر الناصري:

وما أن حلت سنة 1838 حتى بدا التوتر في العلاقات بين السلطان والأمير وذلك بسبب الدعاية الإعلامية الفرنسية وشائعاتها يضاف إلى ذلك غيرة السلطان من الأمير بعد سلسلة النجاحات والانتصارات التي حققها على حساب جيروت القوة الفرنسية الأمر الذي زاد في شعبيته في أوساط القبائل المغربية الشرقية كرجل مجاهد مخلص للدين والوطن حيث دعت له تلك القبائل لكي يكون أميرا عليها كما ساهم في بسط الأمن حتى أذعن له الجميع وأصبح أمره مطاع ترهيبا وترغيبا هذه المكانة للمنافس الجديد لم ترق للسلطان وزاد في تعكير الجو تدخل رجال الطريقة التجانية في تعميق الهوة بين الرجلين وتغذية حساسية السلطان بعدم الثقة في الأمير "إلا أن الطريقة التجانية العدو للدود للأمير حركت أتباعها الكثيرون في جنوب المغرب وحتى في القصر السلطاني وكانوا أيضا عيون عبدا لرحمن وأعوانه في الجنوب الجزائري⁸

في الواقع، تلخص العبارة الأخيرة (انعكاس حاله في آخر الأمر وخلصت الأرض للفرنسيين) التحول الهام الذي تحدث عنه الناصري إذن فلماذا هذا التحول وما الذي جعل الأمير يتغير من حال إلى حال من حال الموالاة للسلطان المغربي عبد الرحمن بن هشام والجهاد باسمه وباسم المخزن إلى حالة الاستكبار وشق عصا الطاعة بل الأكثر من ذلك حسب الاستقصا السعي إلى إثارة قبائل المغرب الشرقية وحثها على عدم طاعة السلطان والتمرد عليه ، وهذا ما نجده واضحا في كلامه : " وكان عبد القادر في هذه المدة قد فسدت نيته أيضا في السلطان وفي الجهاد مع انه ما كان لجهاده ثمرة⁹...، في هذه المرحلة ،وفي السابق كان يجاهد باسم السلطان وتحت لواء المخزن وحين دعاه المولى عبد الرحمان إلى الخيار بين الكف عن المقاومة أو الرحيل إلى الصحراء رفض واستكبر وخلع عنه طاعة السلطان بل الأكثر من ذلك في نظر الناصري رغب في السيطرة على قبائل المغرب الشرقية وعن هذا التحريض لقبائل المغرب الشرقية والرغبة في الاستقلال ومنافسة السلطان عن العرش المغربي يقول الناصري "ورام الاستقلال واخذ في استفساد القبائل المغربية الذين هنالك وتحقق السلطان بأمره وشرى الشر وتفاقم الامر¹⁰ كل ذلك لتبرير تخلي السلطان عن دعم حركة الجهاد في الغرب الجزائري ضد الغزاة الصليبيين يقول صاحب الاستقصا : " رام الاستقلال والاستبداد والتملك على المغرب وصار يدفع أهل النواحي إلى مبايعته والدخول في طاعته"¹¹. ويستمر في تبريره لسلبية السلطان اذ يقول "...لان حاله كان قد اخذ في التراجع والانحطاط ، ولم تبق له هنالك كبير فائدة بل انقلب نفعه ضررا وحزمه خورا بفساد نيته ،واستفساده لجند السلطان ورعيته"¹² من خلال هذا الطرح يمكن أن نستخلص مبررات دخول السلطان المغربي في حرب ضد الأمير بدلا من ان يوحد جهوده مع الأمير في مواجهة الخطر الداهم للجميع انه الخطر الفرنسي الذي كانت طموحاته اكبر من أو هام السلطان الذي لم يكن همه سوى الحفاظ على العرش ولو اقتضى ذلك التخلي عن الواجب المقدس إلا وهو واجب الجهاد في سبيل الله ضد الغزاة الصليبيين . الأمر الثاني هو ان السلطان المغربي كانت له نظرة أنية حيث كان يظن بل يؤمن ان بأبعاده للأمير ومحاربته له سيخلص من الغزو الفرنسي للجزائر وهذا الاعتقاد ستكذبه الأحداث اللاحقة من التاريخ. كما ان وجود الأمير في

النواحي الشرقية للمغرب يمثل سببا مباشرا لطمع الفرنسيين في التراب المغربي ومدعاة لتوريط المغرب في حرب لا طائل من ورائها "ثم ان السلطان هادن الفرنسيين... على شروط ثمانية من جملتها نفي الحاج عبدا لقادر من تلك البلاد لما في بقاءه هنالك من إثارة الفتنة بين الدولتين بلا فائدة....."¹³

إن هواجس ضياع العرش المغربي من يد السلطان عبد الرحمن بن هشام دسياسة فرنسية انطلت على السلطان وامن بها وهذا ما يبرر كل تصرفاته مع الأمير عبد القادر وبذلك تكون فرنسا قد قطعت كل مدد يأتي من المغرب الأقصى بهذه الدسياسة بل وكسبت حليفا لها في حربها ضد الأمير عبد القادر. وبذلك يكون الأمير قد وقع بين فكي كماشة فرنسا تحاصره من الغرب والمخزن المغربي من الشرق فلم تبقى له الصحراء حيث الوحشة وقسوة الطبيعة وظنك العيش إنها قسوة الطبيعة وجبن السلطان ومكائد فرنسا تحالفت كلها وأرغمت الأمير على التسليم. فما هو أزان يقول " ووجد المير في بني يزناسن وقبائل الريف المواساة والمدد الشيء الذي استرجع به قواه حتى بدا خطرا على العرش العلوي وعلى الجيوش الفرنسية في أن واحد"¹⁴

3-2 : ادعاءات الناصري على الأمير :

لقد كان الأمير مثابرا على مصالوة ومجاهدة القوة الفرنسية الاستعمارية، قبل أن يحدد عن نهجه وينخرط في معامع السياسة حسب الناصري. و هكذا يميز الناصري بين القائد المثابر على الجهاد ومصالوة المستعمر، والسياسي الباحث عن مجد سياسي شخصي. من البين إذن، أن الناصري ينوه بجهاد الأمير عبد القادر في طوره الأول، ويدين سياسته المفضية إلى الفتنة والتمزق والتناهب في طوره الثاني. إذ فيما يرسخ جهاده تحت راية الشرعية القائمة، الشرعية السياسية وتماسك الصفوف، فإن توفقه إلى التسديد يفضي إلى الفتنة واختلال المعايير القيمية والسياسية¹⁵.

وبالجملة فلقد كان الحاج عبد القادر هذا في أول أمره على ما ينبغي من المثابرة على الجهاد والدرء في نحر العدو لولا أنه انعكس حاله في آخر الأمر، وخلصت الأرض للفرنسيين، والله غالب على أمره.¹⁶ ويرجع الناصري تراجع عبد الأمير القادر إلى فساد النية واستفساد جند ورعية السلطان وكان الحاج عبد القادر لا زال جاثلا في تلك الناحية ومعه نحو خمسمائة فارس ممن كان قد بقي معه من أهل المغرب الأوسط لأن حاله كان قد أخذ في التراجع والانحطاط، ولم تبق له هنالك كبير فائدة بل انقلب نفعه ضررا وحزمه خورا بفساد نيته واستفساده لجند السلطان ورعيته.¹⁷ وقد أورد الناصري نص كتاب السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام بعد الانتصار على عبد القادر الجزائري. وهو نص ذو حمولة سياسية نقدية حادة، يتهم فيه صاحبه الأمير صراحة، بإثارة الفتنة¹⁸ والجسارة والعناد والتضليل واستبطان المكر والخداع والاستبداد والتشوف إلى الإمارة¹⁹.

فبمجرد ان انتصر بيجو في معركة ايسلي وكان مطلعا على ماناله الأمير من حظوة ونفوذ في المغرب فراسل الخليفة مولاي محمد قائلا " ان لعبدا لقادر إطماعا على مملكة أجدادكم وقد كون أتباعا وأنصارا من بين أعيان البلاد وقادتها، ثم الح على طرد ما بقي من جيش الأمير وارجاع كل عساكره الى بلدانهم واختطاف عبدا لقادر وعائلته وخلفائه وإحلالهم بطنجة او الصويرة، وتعهد السلطان القاطع ان لا يسمح أبدا بمغادرة المدينة التي اختارها له للإقامة..."²⁰، لقد اقتنع الأمير محمد بدسائس بيجو وخضع لضغوطه دون ادنى تردد واصرر وأمره باللقاء القبض على الأمير وهذا ما نجده واضحا للعيان في ادعاءات الناصري في الاستقصا واصبح في نظر صاحب الاستقصا " . وبعد، فإن الفاسد الفتان وخليفة الشيطان، أبعد في الجسارة، وامتنى مطي الخسارة، واستوسع سبيل العناد، واستضل سبيل الرشاد، وقال من أشد منه قوة، وسولت له نفسه الأمارة الاتصاف بالإمارة، وأراد شق عصا الإسلام وصدع مهج الأنام، فأعلن بكل قبيح واستشكل كل صريح، واستبطن المكر والخداع، وفاق فيه عابدي ود وسواع، وشاع في طرف الإيالة ضرره، وساء مخبره، وهو في خلال ذلك يظهر مظاهر يستهوي بها أهل الجهالة، والعماية والضلالة، فأيسناه من رشده، وعرفنا مضمر قصده .."²¹

وكان الأمير عكس ذلك تماما بدليل مبايعة قبائل المغرب الشرقية للأمير والانضواء تحت راية الجهاد التي يقودها الأمير كما ساعدته مكانته من فرض النظام والأمن عندها خرجت النواحي الشرقية عن السلطان الذي تخلى عن الجهاد وحالف الكفار في طنجة ولالة مغنية. وأقيمت قواعد للأمير في المغرب الشرقي عندها زادت مخاوف السلطان. وقد كتب المولى عبد الرحمن بن هشام إلى مشايخ بني يزناسن وأهل أنكاد، منددا بتدابير الأمير ومناوراته وسعيه العملي إلى نقض صلح شرعي والافتئات على الإمام كما جاء في " تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر " لمحمد باشا ابن الأمير عبد القادر.

وكما لم يتمكن الأمير عبد القادر من إدارة العلائق بالمخزن بما يحقق القصد، فإنه لم يتمكن من تطويق الاختلافات الداخلية والحيلولة بين الزمالة والدوائر وبين موالاة ونصرة الفرنسيين. واعتبر الناصري تولية المصطفى بن إسماعيل السبب الأكبر في توسع وتحكم الفرنسيين ببلاد المغرب الأوسط²².

ثم إن الزمالة والدوائر لجوا في موالاة الفرنسيين ، وأحكموا أمرهم معه ، وولوا عليهم رجلا منهم يقال له المصطفى بن إسماعيل كان هو السبب الأكبر في تملك الفرنسيين بلاد المغرب الأوسط ، وجل الحروب التي كانت تكون بين المسلمين والناصري في تلك المدة على يده إلى أن قتل²³ فأيا كانت قيمة المهارة الحربية ، فإنها لا تلغي ضرورة التوافق السياسي وتحقيق المواهب ، مهما اختلفت الآراء والتوجهات والمقاصد.

مما لا شك فيه ، أن الأمير عبد القادر رفض عروض السلطان المغربي لا سباب معقولة غير أن " رواية تملك المغرب الأقصى " التي تسودها الرسائل المخزنية غير مؤكدة فالأمير عبد القادر أنكر صحتها وبعث إلى فاس سفارة بإشراف خليفته (البوحميدي) كذبت هذه الرواية وهذا ما يؤكد الكثير من المؤرخين وعلى رأسهم مسلم ابن عبد القادر وما تزويه التحفة²⁴ ويؤكد المزارعي في مؤلفه طلوع سعد السعود إذ يشير إلى هذه السفارة في كتابه.

- غير أن الناصري ، لا يطرح القضية من باب البحث التاريخي بل يعالجها من زاوية إيديولوجية بحثة فالأمير عبد القادر بحكمه (عامل السلطان المغربي) في نظر الناصري كان عليه أن ينفذ الأوامر وأن يتقيد بالخدمة الشريفة فكل عمل يخرج عن نطاق هذه الخدمة هو بمثابة العصيان والتخلي " عن طاعة الإمام الحق التي كانت بيعته في عنقه "²⁵ فالناصرى يعتبر الأمير عبد القادر (خادم السلطان في المغرب الأوسط) ليس أكثر أنه لا يعترف بشرعية البيعة التي تمت له ولا بشرعية الإمارة التي اسندت له ، لأن البيعة والإمارة لا تحقان إلا لأفراد البيت العلوي ويرفض الناصري أن يكون عبد القادر أمير (يطلق عليه اسم الحاج عبد القادر) لأنه ينحدر من أسرة مرابطية تنتمي إلى الطريقة القادرية فشيوخ الطرق الصوفية غير مؤهلين - في نظره - لقيادة المسلمين وأمارتهم لأنهم مصدر الفتن فالطرق (تشق عصا الطاعة وتصدع منهج الانام) فتظهر بمظاهر تستهوى بها من أهل الجاهلة والعماية والضلالة²⁶.

فالناصرى مؤرخ رسمي ينطلق من موقع الدفاع عن السلطة الملكية في المغرب الأقصى ويعتبر وحدة المغرب الأقصى في وحدة سلطتها المركزية فكل خروج عن طاعة السلطان فتنة وكل فتنة ضلالة تؤدي إلى تصدع (الجماعة) وزعزعة أركان سلطتها.

انه بحكم تكوينه التقليدي يجمع بين موقف المؤرخ الرسمي الذي يعتبر السلطة المركزية فوق كل اعتبار وموقف العالم السلفي الذي يرفض الفتنة (الفتنة اشد من القتل) وينظر إلى الطرق الصوفية على أنها منبع (الفساد الذي ألم بالمسلمين).

3. المقاومة بعد معركة إسلي في نظر الناصري:

- يؤكد الناصري أن مقاومة الأمير - بعد هزيمة إسلي - صارت (جهاد بلا ثمرة) بل انقلب نفعه ضررا و (صار حزم الحاج عبد القادر خورا).²⁷ فمنذ أن استولت الفرق العسكرية الفرنسية على زمالة الأمير سنة 1843 ، فقدت المقاومة - في نظر الناصري - طاقتها الرئيسية إذ حكم الجيش الفرنسي سيطرته على جهة الغربية واستولى على المدن الرئيسية في الجزائر.

وبعد عقد الصلح بين المغرب الأقصى وفرنسا على إثر معركة إسلي سنة 1844 ، تحول (الجهاد بلا ثمرة) إلى فتنة فالناصرى يعتبر هذا الصلح (انتصار المغرب الأقصى) لأن فيه (مصلحة للإسلام والمسلمين). فالمغرب الأقصى كان - في نظره - مهددا في سيادته وسلامه ترابه ووحدة سلطته ، على إثر هزيمة سنة 1844 فالهدف من عقد الصلح - في هذه الحالة (سد باب الفتنة على الخاص والعام) فالإصرار على المقاومة ومقاتلة الفرنسيين لا يخدم مصلحة المغرب الأقصى وسلطته بل هو فتنة وخيانة.

... فالناصرى ينظر إلى المقاومة الجزائرية من زاوية المصالح السياسية والشرعية للمخزن العلوي أما مصيرها فتوقف على المصالح العليا للمغرب الأقصى وسلطته إن موقفه الأيديولوجي هذا منعه من فهم الأبعاد الحقيقية للمقاومة الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر وتتمثل هذه الأبعاد في تأسيس دولة تحدث القطيعة مع الفكر السياسي التقليدي في المغرب العربي وتقوم على جمع الأراضي الجزائرية وتوحيد القبائل على أساس إلغاء الامتيازات الإقطاعية وتأكيد وحدة السلطة المركزية.

ومع ذلك ، فالناصرى - بوصفه مؤرخا ينشد الحقيقة التاريخية - يعترف للأمير ((بالشجاعة)) و ((الحنكة)) في فنون الحرب ، أنه الرجال الذي دوخ الجيش الفرنسي وانتصر عليه في عدة معارك ويذهب إلى مساندته حين نبه المولى عبد الرحمان - سلطان المغرب - إلى ضرورة إصلاح الجيش ودعاه إلى الاستعداد الجدي لمواجهة الجيش الفرنسي في موقعه إسلي ، في هذا الصدد يقول: ((ولما احتل الخليفة سيدي محمد باسلي وعسكر به جاءه الحاج عبد القادر... فدار بينهما كلام... وبين (عبد القادر) كيف كان يقاتل هو العدو... وكان هذا الكلام صوابا إلا أنه لم ينجح في القوم لانفساد البواطن)).

ينظر الناصري إلى الأمير عبد القادر والمقاومة الجزائرية من منطلقات فكرية لا تعكس رسالة الوطن والحدثة ، لأن الرجل يصدر عن مواقف اجتماعية وسياسية تحليل إلى مجتمع ودولة تقليديتان الخطاب (الناصرى) يعكس (مصالح

سلطة مخزنية) في موقع دفاعي ، كما أن خطابه التاريخي يرتبط بفئة اجتماعية تناقضت مصالحها مع ضرورات مقاومة مسلحة تستند إلى فكر نهضوي يريد تحقيق القطيعة مع المجتمع التقليدي ومؤسساته ، فالكتابات التاريخية المغربية التقليدية تقوم على أسس فكرية لا تركز الوعي بالأبعاد الحقيقية للدولة التي أراد الأمير عبد القادر بنائها إن رسالة الوطن ووحدته التي ترمز إليها إصلاحاته لا نلمسها في الخطاب التاريخي التقليدي إنما نلمسها - عموما - في الخطاب التاريخي الأوروبي بوجهه الاستعماري والليبرالي (رؤية الآخر) ، وفي الخطاب الوطني الذي يتركز على الوعي والحادثة).

4- نظرة السلطان لتسليم الأمير:

ورغم هذا الطرح المخزني ، فإن إبراهيم ياسين²⁸ يورد رسالة للمولى عبد الرحمان لعاملة بتطوان ، يتعجب فيها السلطان من موقف الذي أخذه عبد القادر ويعتبره سواء خاتمة . وأظن أن هذا الموقف يندرج ضمن المواقف المتناقضة للسلطان ، وفي الوقت نفسه فهناك من ينفي رغبة السلطان في تسليم الأمير للفرنسيين في الحالة بين يديه²⁹ . ويستدل في ذلك بعلاقة أسرة الأمير بالسلطين العلويين الطيبة خاصة في عهد المولى عبد حمن الذي اقترح على الأمير عبد المالك³⁰ منصب رئاسة عساكر الثغور . ومن خلال عملية مسح سريعة لكتاب الاستقصا في جزئه التاسع ، يمكن تسجيل الملاحظات الآتية:

استمرار السلطان في الطعن في حركة الجهاد الجزائرية .

استمراره في وصف الأمير بصفات ذميمة ، والتي لم يسلم منها حتى بعد خروجه من المغرب .

مطابقة الموقف الفرنسي للموقف المخزني في كيفية التعامل مع نبأ التسليم³¹.

تصوير الأمير بمثابة الشخص الطامع في العرش المغربي ، فهل كان فعلا للأمير عبد القادر أطماع في عرش المغرب ؟ اختلفت الروايات التاريخية حول هذا الطرح فهناك من أكدته وهناك من نفاه تماما ، ولكل منهما وجهة نظره وأدلته ، ولذلك بقيت هذه النقطة معلقة بين مد وجزر ولمعرفة حقيقتها أرى من الضرورة بمكان طرح هذه الأسئلة التي لم تطرح من قبل- حسب ما أعتقد - وهي متى تم طرح هذه الفكرة ؟ ومن الذي طرحها ؟ وأين كان عبد القادر عندما طرحت؟ وما هي قدرات التي كان يتوفر عليها لضمان تولي عرش السلطان؟

الرأي الأول : يشاطره الكثير من المؤرخين و الباحثين المغاربة :

-إبراهيم، حركات: بدأ يدعو لنفسه في مناطق الشمال التي تميزت عبر تاريخها الطويل وفي فتراته بأن نظر بحذر إلى السلطة المركزية³².

-أكسنوس: وبرقت له بارقة...وجاوز حده ، حتى أنه من فرط جهله طمع في ملك الغرب كلها ،كان يصرح بذلك جهازا ويظهره في محافله إظهارا³³.

- الناصري : وانه رام الاستبداد بل والتملك على المغرب ، فلما كانت هزيمة إيسلي ازداد طمعه فصار يدعو أهل النواحي إلى مبايعته والدخول في طاعته ، وكاتب الخواص من أهل فاس والدولة وكاتبوه على ما قيل³⁴ .
-إسماعيل مولاي : يرى أن الأمير عبد القادر قام بالثورة ضد المغرب³⁵ . وهذا ما تجمع عليه معظم الكتابات المغربية وحتى بعض الفرنسية مصدقة دسانس بيجو وجزالاتها وهي حيلة انطلقت على السلطان وإتباعه ومن شابعهم من مؤرخي ذلك العصر في حين كذبت هذه الادعاءات المصادر الجزائرية وان الأمير بقي مخلصا للسلطان حته في أواخر أيامه وهذا ما تؤكدته رسائله وهداياه للسلطان.

- أبو العلا إدريس : فيبعد أن زحف الأمير عبد القادر لهذه الإيالة مستنجدا أهلها وطالبا مالها ، ففتنه أعربها وأناموه في فرش الغرور وقربوا له القواصي القاصمة الظهور ، فما له ومبارزة سلطانه الذي أعلن مبايعته³⁶.

-قدور بن علي البشير: وعقب هذه الكارثة أخذ الغرور يتعاضم في نفس الحاج عبد القادر فأظهر لإيقضاض على المغرب ... ولكن المولى عبد الرحمان قد تقطن للخديعة، فكانت بينه وبين الحاج عبد القادر وقعة التسول التي أفضلت (طابوره الخامس).

الرأي الثاني:

يرى خلاف ذلك ويذهب أنصاره إلى القول: أن عبد القادر لم تكن له أطماع في عرش المغرب ، ورغم المكانة الشعبية التي حظي بها لدى قبائل المغرب الشرقي ، وأمل هؤلاء في أن يكون الأمير سلطاتهم فإنه رفض هذا العرض ، ومن بين هؤلاء نذكر :

-محمد السعيد: انتشر صيته بأرض المغرب وأحبه جميع أهله لفضيلة الجهاد.... فحسده سلطان المغرب لذلك خشية منه على أرضه إيالته مع أنه لم يكن له قصد إلا السكن بتلك الأرض حتى يفتح الله أو يأتي بأمر من عنده³⁷.

-هنري تشرشل فقد اتصل عبد القادر برسائل من أعلى المستويات في الدولة ... وترجوه أن يأتي لإنقاذ الدولة المغربية من الانهيار وخراب محقق ودعوه لتوالي عرش أجداده ولو كان عبد القادر بمجرد مغتصب عادي للسلطة

لما كلفه الأمر الآن أكثر من مد يده والاستيلاء على صولجان المغرب، ولكن دافعه الحقيقي كان الوطنية وليس الطموح³⁸.

- الأمير عبد القادر: وكنا اثر تلك الوقائع (معركة إيسلي) انتقلنا بأهلنا إلى وادي ملوية بساحل البحر. بموضع يقال له صبرة... وأجريت الأحكام حينئذ على كل مخالف برضا العقلاء أهل الدين ولما بلغ سلطان المغرب أكد له الحسد والبغض السابقين، فكتب قائد الأحلاف وقتئذ (القائد حمدون) فهلا أردت ذلك بالحاج عبد القادر وقومه قبل أن يحدث منهم أمر؟³⁹. فكيف كان موقف عبد القادر من هذه الطروحات؟

من خلال ما ذكره في قوله: لقد رفضت عرضا مغريا وجه إلى بطريقة إجماعيه ليس فقط لأن ديني يمنعني من مضرة حاكم أختاره الله، ولكن لا نني بعد أن عرفت المغرب بمشاكله الداخلية، شعرت أن ذلك سيقضي مني على أقل اثنتي عشرة أو خمسة عشرة سنة، لا لكي احكم مثل مولاي عبد الرحمان ولكي يكون في استطاعتي أن أفرض القانون أن أجعل حكومتي محترمة.

وانطلاقا من هذا الموقف يمكن الإجابة عن الأسئلة السابقة في ما يلي: تم طرح فكرة الخطر على العرش ولأول مرة من الجنرالات فرنسا، بعد لجوء عبد القادر إلى المغرب سنة 1843 والتي تم تميمها فيما بعد بالبعثات الدبلوماسية وتبادل الزيارات الثنائية، مع استغلال ظروف المغرب الداخلية والحالة النفسية للسلطان، وما يؤكد هذا الطرح هو نصوص الوثائق الفرنسية السابقة الذكر، وهذا ما يندرج ضمن السياسة الفرنسية.

-عندما طرحت الفكرة كان عبد القادر مخيما بالمغرب الشرقي (1843-1845) ولكن لماذا استمرت فرنسا في طرحها بعد عودته إلى الغرب الجزائري (1845-1846)؟ لاشك أن هذا يعكس مدى صحة هذا الطرح الفرنسي للفكرة، أما قدرات الأمير فإنها كانت لا تسمح له بتحقيق ذلك، لان القدرات التي توفرت لديه بعد لجوئه إلى المغرب وظفها أثناء عودته إلى الغرب الجزائري والتي تركها وراءه (دائرتة) سرعان ما انقسمت على نفسها ، وحتى القبائل التي راهن عليها في مساعدة حركة الجهاد أصبحت منحازة إلى صف المخزن.

ونتيجة للضغوطات الفرنسية أصبح السلطان يعمل بنشاط كبير ضد المهاجرين الجزائريين، والأدلة على ذلك هو المضمون الخطابات التي أرسلها إلى عماله بالمغرب الشرقي، والتي لم تكن تخلو من الكلمات التالية:الفتان، الغدار، الخداع، الشيطان، الطماع وتعتبر فرنسا هي أول من استخدم هذه التعبيرات ثم سرعان ما أصبحت جارية على لسان المخزن ومما سبق ذكره يمكن القول إنه لم تكن لعبد القادر الجزائري أطماع في عرش المغرب، وبعيدا عن المغالطات التاريخية نثمن هذا الحكم بالمعطيات الآتية:

1-عندما طرحت الفكرة بشكل جلي عقب معركة إيسلي ، فالأمير صحيح أنه كان بالمغرب الشرقي ، ولقي كل الترحاب لدى قبائله ، فلو صح ذلك ما كان لعبد القادر أن يتوغل في الغرب الجزائري للجهاد . هو الذي لم يكن يضمن نجاته من الموت.

2-ما جاء على لسان الأمير في خطاباته إلى السلطان، ومضمون الرسائل التي نقلتها الوفد الجزائرية إلى السلطان تنفي ذلك.

3-إن الطلب الذي قدمه عبد القادر للسلطان في آخر المطاف بالسماح له بالانسحاب إلى الصحراء بعد إعادة تشكيل قواته ذلك أيضا يكذب تلك الادعاءات الفرنسية.

كما أن الناصري نفسه يعترف في الأخير ببراءة الأمير من تلك الادعاءات حيث يقول " ولما وصل الخليفة المولى محمد إلى سلوان بالريف بعث إليه الحاج عبد القادر جمعة فيهم وزيره أبو عبد الله البوحميدي يتصل مما رمي به وانه لا زال على الطاعة والخدمة للسلطان وقدما للخليفة هدية ..."⁴⁰

5 - اعترافات الناصري بحركة الأمير في الحرب والسياسة: 1.5 - نصائح الأمير عبد القادر العسكرية للسلطان وخلفائه:

نوه الناصري بنصائح الأمير عبد القادر للخليفة سيدي محمد بن عبد الرحمن(1810-1873م)، وتحذيره من اعتماد الأساليب التنظيمية أو القتالية المعتاد في مواجهة القوات الفرنسية المسلحة تسليحا حديثا وضرورة الاعتماد على تقنيات قتالية عصرية. قال الحاج عبد القادر : "إن هذه الفرش والأثاث والستارة التي جئتم بها حتى وضعتوها بباب جيش العدو ليس من الرأي في شيء ،ومهما نسيتم فلا تنسوا أن لا تلاقوا العدو إلا و أنتم متحملون منكمشون بحيث لا يبقى لكم خباء مضروب على الأرض وإلا فإن العدو متى رأى الأخبية مضروبة لم ينته دون الوصول إليها ولو أفنى عليها عساكره ،وبين كيف كان هو يقاتله."⁴¹

2-كما أشار إلى وكان كلام الأمير في نظر الناصري قمة في الذكاء وفرصة لتنظيم الدفاع المغربي لو عمل به ولم يتجاهل نصائحه، " وكان هذا الكلام منه صوابا إلا انه لم ينجح في القوم لانفساد البواطن ولا حول ولا قوة إلا بالله " ⁴²ولاستحكام العوائد القديمة وعدم التمرس بأساليب القتال الحديث،وربما انتهزه بعض حاشية الخليفة على التفصح

بمحضره والإشارة عليه قبل استيشاره .."⁴³

3 لقد استحسّن الناصري موقف الأمير عبد القادر ونصيحته، وأشار إلى مواضع الاعتلال في الجيش والواقع أن النخب الثقافية المخزنية تداولت وتجادلت طويلا قبل معركة ايسلي(1844م) وبعدها حول حرب الكر والفر وقتال الزحف وتنظيم الجيش دون أن تنتهي إلى بلورة تصورات عقلانية أو مقاربات تاريخية للشأن العسكري. وقد ذكر في معرض حديثه عن وقعة تطوان(1859-1860م) ، ما شاب إدارة الجيش من اختلال في واقعة جميان(1818م) ووقعة زاوية الشراي في عهد المولى سليمان(1760-1822م) ، وتلمسان وايسلي(1844م) في عهد المولى عبد الرحمن بن هشام. ولما شهدوا مع الخليفة سيدي محمد بن عبد الرحمن وقعة ايسلي جاءوا بها شنعاء غريبة في القبح ولولا أنه قام بنفسه ليلة الحاج عبد القادر[الجزائري] ومنع الناس من الركوب لربما عادوا إلى فعلهم ، وأحسن ما كانت حالهم في هذا الحرب فإنهم قاوموا العدو ، وفرقوا صفوفه غير مرة ، لكنهم أتوا من عدم الضبط الذي هو كضبطه فعدم ملاقاتهم للعدو في الكيفية القتالية هو الذي أضر بهم و أوجب لعدوهم الظهور عليهم ...

5 . 2 – الاعتراف للأمير بالدهاء السياسي في إدارة الحروب:

لا يركز الناصري على الخلفية الصوفية للأمير عبد القادر ولحركته ولنجاحه وبطولاته في أغلب معاركه ضد الفرنسيين؛ ولذلك فهو يلح على كفاءته القيادية والحربية، ومهارته في إدارة النزال والاشتباك الحربي كما تفنن في وحروب الكمائن دون أن يشير إلى دور الفكر والتطلعات والتنظيمات الصوفية في صقل الوجدان الفردي والجماعي وصياغة القرار وبناء التحالفات بالمغرب الأوسط آنذاك). وكان له، يقصد الفقيه المرابط محيي الدين المختاري، يومئذ عدة أولاد ليس الحاج عبد القادر أكبرهم ، ولا أعلمهم ، ولا أصلحهم ، وإنما كان فيه مضاء وإقدام ، وشجاعة. وهكذا، ففيما يشير إلى قدراته الحربية والقتالية فإنه يغفل كفاءاته المعرفية وتطلعاته وتكوينه الديني وانتماءه الصوفي إلى الطريقة القادرية من الثابت أن الأمير استفاد من هذا الانتماء في الاستنفار والتعبئة والتحالف واستجلاب الموارد بل والإلهام أحيانا حيث تمتع الأمير عبد القادر بفراسة أذهلت الصديق والعدو بل دوخت عساكر فرنسا وذلك بشهادتهم.

يعتقد الناصري انه كان صاحب رأي صائب في طرحه "واعلم انه قد يقف بعض المنتقدين على ما حاكيناه من أخبار هذا الرجل فينسبها الى تعصب وسوء أدب ، والجواب أنا ما حاكيناه إلا الواقع "44 احتكم الناصري في تقييمه لمسار وتجربة الأمير عبد القادر الجزائري إلى طبقة فكرية موالية للبلاد وإلى ما كان شائعا ومشتركا بين مؤرخي القرن التاسع عشر على غرار (أبو القاسم الزياني ،محمد بن أحمد أكنسوس ومحمد المشرفي وعلي السوسي ...)ومن المعلوم أن الكتابة التاريخية المغربية التقليدية ،تحتكم إلى محددات السياسة الملكية في النظر والتوصيف والتقييم وإلى توقعات السياسة الوقتية في التقدير والحكم ومن الجدير بالذكر أن الناصري أكد التزامه بالوقائع لكنه لم يحرر نفسه ويبعدها عن التعصب في تقييمه النقدي السلبي لحركة الأمير ونتائج جهوده الحربية و السياسية."واعلم أنه قد يقف بعض المنتقدين على ما حاكيناه من أخبار هذا الرجل فينسبنا إلى تعصب وسوء أدب والجواب أنا ما حاكيناه إلا الواقع

«

لا ينفي تأكيد التجرد والنزاهة، والانحياز اللاشعوري والشعوري، والميول لحضرة السلطان، فكرا ومنهجيا وتأبيد تدابير السياسية المتخذة ضد الأمير موقفا وتقييما وترجيحا.

خاتمة:

وبالجملة فإن الناصري يعتبر من المصلحين المغاربة الذين حاولوا التفكير والاعتبار فيما كانت عليه بلادهم من عزة وصارت إليه من خمول وجهل ، حتى باتت مطمع الطامعين في خيراتها . مع ذلك يؤاخذ في كتابه موضوع دراستنا بأنه بالغ في الهجوم على الأمير ، ولم يكلف نفسه عناء البحث عن الحقيقة من وراء تفسير الوقائع والأحداث التي صاحبت مقاومة الأمير عبد القادر على طول الحدود بين البلدين الشقيقين .وانه بالغ في الحذر من الأمير بدلا من ان يضع يده مكمنا الداء والخطر الذي أصاب الخصمين معا ، الأمير عبدا لقادر والسلطان معا ، على العدو الحقيقي الجزائر و للمغرب معا . وهذا الأمر يمكن تفسيره وببساطة بميوله الكبيرة للعرش المغربي وانسياقه وراء الأكاذيب والتلفيق الفرنسية في شأن الأمير .كل ذلك كان في زمن طغيان الاحتلال الفرنسي ونجاح دعايته وكائده التي تفنن في صناعتها ليون روش ومن ورائه خبث الفرنسيين وكبيرهم بيجو .ومن هنا وجدنا صاحب الاستقصا و هو في كل الحوادث التي تسبب فيها الفرنسيون أو استغلوها نجده يساير منطقهم ،وهو منطق يحمل الأمير كل المسؤولية عما جرى من أحداث ونزاعات بين المغرب وفرنسا بالمقابل يسكت عن مسؤولية فرنسا في ذلك ، دون ان يبخل على تقديم خدمته للعدو الأكبر المتربص ليس فقط بالأمير بل بالمغرب أيضا .

ومن هنا ما ابعد صاحب الاستقصا عن الموضوعية التي هي ضرورية في هذا النوع من الكتابات بل الأكثر من ذلك لم يراعي الصالح العام للأمة الإسلامية وراح يركز على تمجيد السلطان في إطار القطرية الضيقة وإهمال مصالح الأمة. دون تمحيص أو تحقيق إذ لم نعثر على توثيق يؤكد ما زعمه.

لم يتخلص صاحب الاستقصا من النظرة الذاتية للأحداث التي رسمت العلاقة بين الأمير والسلطان إذ لم يخفي ميوله المطلقة للسلطان المغربي في الكثير من تلك الأحداث وذلك بحكم الوظائف التي تقلدها وبحكم ثقافته المخزنية واستفادته من امتيازات كثيرة لم يخفي تملقه للسلطان والمبالغة في مدحه.

لقد كتب التاريخ في شكل يوميات فرضتها ظروف الصراع بين المغرب وفرنسا وحسب المعطيات التي فرضتها معركة اسلي والهزيمة النكراء التي مني بها المغرب من ثم استأثر المصلحة الخاصة بالمغرب، وأهمل الكثير من الحقائق المرة والمأسوية أحيانا فلم يتمكن من إيصال الحقيقة التي ينشدها الجميع.

وفي الأخير فإن المؤرخ الحق يجب ان يعتمد على المادة التاريخية وإخضاعها للمنهج العلمي الدقيق. ولن يتأتى ذلك إلا بضرورة هضم تلك المادة هضما يمكنه من امتزاج معارفه بنفسه وكيانه وبتطورات الأحداث مهما كان نوعها خلال الفترة المدروسة ، حتى يتمكن من معرفة الفترة وكنهها وروحها وطبيعتها ، وما كان يحتمل وقوعه في تلك الفترة ، بل كان ارتجاليا في الكثير من طروحاته الأمر الذي أوقعه في الزيغ، والزلل ، والتضليل أحيانا والتعلق بالأوهام وبني على الرمال آرائه فزور الواقع والوقائع زيادة أو نقصانا ، دون استشراف للمستقبل القاتم الذي ينتظر المنطقة برمتها

لقد ظن الناصري ومن ورائه السلطان والمخزن أن التخلص من الأمير وحده كفيل بضمان سلامة المغرب ودرء الخطر عليه وبالغوا في ذلك لكن أكدت لهم الوقائع اللاحقة صدق الأمير في تلك النصائح التي كان يسديها للسلطان وتنبهيه المتكرر للخطر الفرنسي الداهم الذي يستهدف المغرب والجزائر معا. لقد كانت السنوات الأخيرة من مقاومة الأمير صعبة ويشوبها الكثير من الغموض والريبة وحتما هي تخفي إسرارا عظيمة وأحداثا جلل صعبت من مهمة الأمير في مواصلة الحرب ، حيث شهدت الفترة تحالفات مغربية فرنسية غير طبيعية بل محل ريبة وشك ساهمت حتما في إخماد نشاط الأمير وإلى الأبد . ومن هنا فعلى الباحثين أو المؤرخين الناشئين أن يتعاملوا مع تلك المصادر والأرشيفات وغيرها بنوع من التحفظ وان تلك المصادر ليست خالية من الزلل و الخطأ، أحيانا ومن الدسيسة وروم التشويه والتلفيق أحيانا أخرى. وان يعملوا بمبدأ الشك في كل ما يصادفهم حتى نستطيع كتابة تاريخ وطني خالي من المغالطات والتشويه. ولابد من إعادة قراءة لكل المصادر التي كتبت عن الفترة من أجل الوصول إلى الحقيقة التي أرغمت الأمير في الأخير على التسليم. وعلى كل باحث أن لا يستسلم لما تضمنته روايات بعض المؤرخين المغاربة، بما في ذلك روايات الناصري وأكنسوس المحسوبة على الرواية المخزنية، بل يحب ان يمارس النقد على الروايات جميعها، بما في ذلك الرواية الفرنسية المبنوثة في مراسلات ممثلي السلطة الفرنسية وقادتهم العسكريين، وذلك حرصا من الباحث على تقديم رواية موضوعية، تكشف عن مسار العلاقة بين الأمير عبد القادر والسلطان المغربي مولاي عبد الرحمن بن هشام، وعدم نسيان مناورات فرنسا في هذا الشأن ودسائسها للإيقاع بين الرجلين . مع محاولة تأطير كل مرحلة من مراحل العلاقة بما يكفي من التوثيق والتحليل والتفسير.

¹الناصرى أبو العباس أحمد: الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى، الدولة العلوية، ج9، تحقيق وتعليق ولديه جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء المملكة المغربية، 1418هـ. 1997. المصدر نفسه ص 45.

³الناصرى أبو العباس أحمد: الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى، الدولة العلوية، ج9، تحقيق وتعليق ولديه جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء المملكة المغربية، 1418هـ. 1997. المصدر نفسه ص 42.

المصدر نفسه ص 42.

المصدر نفسه ص 44.

المصدر نفسه ص 44.

⁸ بلحميسي مولاي، الأمير عبد القادر والسلطان مولاي عبد الرحمن من الألفة والوئام إلى الجفوة والخصام، أعمال الملتقى الوطني، الأمير عبد القادر، 1998، طباعة وتوزيع ، دار الحكمة، ص 49.

المرجع نفسه ص 50.

المرجع نفسه ص 50.

المرجع نفسه ص 51.

الناصرى مصدر سابق ص 51.

المصدر نفسه ص 53.

¹⁴Azan (Général Paul), *L'armée d'Afrique de 1830 à 1852*. (Collection du Centenaire de l'Algérie, 1830-1930, Archéologie et Histoire), 1936 p 409

¹⁵الناصرى، الجزء 9، ص.54-55.

16. الناصري، الجزء 9، ص. 60
17. أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا، الجزء 9، ص. 61.
18. - أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا، الجزء 9، ص. 112
19. أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا، الجزء 9، ص. 55
20. بلحميسي مولاي، الأمير عبد القادر والسلطان مولاي عبد الرحمن من الألفة والوئام إلى الجفوة والخصام، أعمال ملتقى الأمير عبد القادر، 1998، طباعة وتوزيع دار الحكمة، ص. 53.
- الناصرى مصدر سابق، ص 123. 21
- 22 المزارى الأغا بن عودة: طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و إسبانيا و فرنسا إلى أواخر القرن 19م، ج 1 و 2، تحقيق و دراسة يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامى بيروت 1990، ص 90.
- 23 المزارى، مرجع سابق، ص ص : 90. 91.
- 24 ابن عبد القادر محمد: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج 1، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية بيروت لبنان 1384 هـ - 1964م ص ص 87.88.
- 25 الناصري، المرجع السابق، ص 61.
- 26- المصدر نفسه، ص 58.
- 27-الناصرى المصدر السابق: ص 54.
- 28 - نفس المصدر، ص 50
- 29 إبراهيم ياسين: موقف الدولة المغربية من الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830 - 1847، ك. آ. ع. إ. / د. د. ع.، جامعة محمد الخامس الرباط المغرب 1987 ص ص 121. 122.
- عبد الحفيظ بن الحسن بن محمد العلوي (1356-1280هـ/1863-1937م) ولد بفاس ونشأ في قلييلة بني عامر، من سلاطين الدولة العلوية في 29 المغرب الأقصى، عرفت فترة حكمه فرض نظام الحماية على المغرب سنة 1912م، التي أرغم على إمضاها، يعتبر أول من نظم الجيش المغربي على الأسلوب الأوربي الحديث، وأول ملك في الدولة العلوية حمل وسما أجنبيا، الحموي ياقوت: معجم الأعلام، مجلد 6، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان بلا تاريخ.، ص 277.
- 30 - عبد المالك بن عبد القادر الجزائري، ولد في سنة 1285هـ/1868م، بدمشق وتعلم بها، يتقن اللغتين التركية والفرنسية، وكان خطيبا وشاعرا غادر دمشق سنة 1903 إلى المغرب، تولى في سنة 1906 قائدا لشرطة الدولية بطنجة، التحق بثورة الشيخ بوعمامة، وعندما ألقى هذا الأخير السلاح سنة 1904، انظم إلى التأثير المغربي بوحمار، ثم انظم إلى صف المخزن المغربي بقيادة السلطان مولاي عبد العزيز، لعب دور كبيرا في الأحداث التي عرفته المغرب في الثلاثين سنة الأولى التي عرفها المغرب في قرن 20م، يراجع: سعد الله أبو القاسم: أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ج 1، ش. و. ن. ت. الجزائر 1985. ص 107
- شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ط 2، ترجم وعلق عليه: د. أبو القاسم سعد الله، الجزائر 1982، ص 47.
- 32 حركات إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ج 2 ط 2، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء المغرب 1992 ص 330.
- 33 -ابي عبد الله محمد بن احمد الكنسوسي الجيش العرمر الخماسي في دولة اولاد مولانا على السجلماسي تحقيق احمد بن يوسف الكنسوسي الجزا الثاني، ص 221
- الاستقصاء، ج 9 المصدر السابق، ص 56. 34
- اسماعيل مولاي عبد الحميد العلوي: تاريخ وحدة وأنكاد في دوحة الامجاد، ج 1، ط 1 1406.1986، ص 146. 35
- ابي العلاء ادريس: الابتسام عن دولة ابن هشام وديوان العبر في اهل الثالث عشر، تحقيق عبد الهادي التازي، الرباط، ص 429. 36
- قدور بن علي بن البشير الزيناسي: بنو يزناسن عبر الكفاح الوطني، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط، 1976، ص 76. 37
- 38 هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، المصدر سابق، 15.16.
- حياة الأمير عبد القادر، المصدر السابق 225. 39
- الناصرى مصدر سابق ص 58. 40
- الناصرى، مصدر سابق، ص 51. 41
- المصدر نفسه ص 51. 42

المصدر نفسه ص 43.51
الناصرى، مصدر سابق، ص 44.58